الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٩١ | الثلاثاء ٥ من شعبان سنة ١٣٦٣ — ٢٥ من يوليه سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العـــــدد

روسيا الشرقية

إذا صرفنا النظر عن الحرب الدائرة في فنلنده ، نرى الزحف الروسي يتجه من الشرق نحو الغرب ، في قطاعات مختلفة ؛ لكل منها وجهة وغاية ومسلك خاص يسير فيه الهجوم . ففي الشمال زحف على حدود لاتفيا ، ووجهته الساحل البلطي عند مدينة ريجا ، وقد كان هذا الهجوم عنيفاً أول الأمر ، ثم قلت حدته بعد ذلك نوعا ما ، ثم عاد إلى الاشتعال من جديد .

وإلى الجنوب من هذا القطاع يزحف الروس في أرض لتوانيا ، بعد أن استولوا على مدينة فلنا ، وقد أخذت جيوشهم تُظِلُّ العاصمة اللتوانية (كوفنو) . وهذا الطريق ينتهي بلا شك إلى الطرف الشمالي من بروسيا الشرقية ، وإلى موانئها المعروفة ميمل وكونجسبرج والبنج ؛ وقد يفضي بعد ذلك إلى دنزج ، تلك البلدة الجميلة المشئومة ، التي اقترن اسمها بالأسباب التي أثارت هذه الحرب الشعواء ، كأنها هيلانة طروادة ، حسناً وفتنة وشؤما ، ووبالا على بني الإنسان .

وجنوب هذا القطاع زحف ثالث يتجه نحو الشطر الجنوبي من بروسيا الشرقية ، وقد تجاوز هذا الزحف مدينة جرودنو الحصينة ، التي أخلاها الألمان من غير قتال ، وبذلك اقترب الروس من بروسيا في هذا الوضع أكثر مما اقتربوا في القطاع السابق . ولقد كان زحف الروس هنا أسرع منه في أي قطاع آخر ؛ فإنهم لم يكادوا يستولون على منسك ، حتى أخذوا يندفعون نحو الغرب من غير تريث أو تمهل . ولقد كان الاستيلاء على منسك ذاتها عملا عجيباً ؛ لأن الروس تركوا شطراً من الجيش الألماني وراءهم ، وخلفوا جيشاً روسيًّا لمحاصرة القوات الجرمانية المتخلفة ، ولم تتم تصفية هذه القوة إلا بعد سقوط منسك ذاتها بزمن ؛ ولا شك أن هذا دليل على أن للروس قوات احتياطية عظيمة . ولذلك استطاعوا أن يمضوا في ذلك الزحف السريع ، بأن يخصصوا جيشاً لمحاصرة المدن أو القوات المتخلفة ، دون أن يعطل هذا من الزحف العام الماضي لطيّته .

وجنوب قطاع منسك — جرودنو ، نرى قطاعا عجيباً ،

كنا نظن أن الحرب ستكون فيه أكثر ركوداً وهدوءاً . ذلك هو إقليم مستنقعات نهر بريبت ؛ وهذا النهر عبارة عن رافد يجرى فى النهاية إلى نهر دنيبر بالقرب من مدينة كييف . ولكنه فى مجراه الأعلى فى بولنده وفى غرب روسيا ، يجرى — أو يكاد يجرى — فى أرض سهلة ، قليلة الانحدار ، فتكثر فيها المستنقعات فى مساحة واسعة ، تكوّن قطراً عظيما ، قليل السكان ، قليل المدن والقرى . والجيوش الحديثة بعدتها الثقيلة تتحامى مثل هذا الإقليم ، وتتجنبه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وذلك ما فعلته ألمانيا فى زحفها منذ ثلاثة أعوام . ولكن الروس قد اقتحموا إقليم المستنقعات ، بأن انقضوا عليه من الشمال ، واستعانوا بالزوارق النهرية . حتى تم لهم الاستيلاء على (بنسك) ، وهى المدينة الوحيدة الهامة وسط هذه المستنقعات . ولم يكد يتم لهم الاستيلاء عليها ، حتى اندفعوا نحو الغرب بسرعة عظيمة ؛ حتى أشرفوا على حصن برست ليتوفسك الشهير . وطريق هذا الزحف هو الطريق المباشر المفضى إلى وارسو ، وفى النهاية يفضى إلى العاصمة الألمانية . فإن مدينة بنسك وبرست ووارسو وبرلين تقع كلها على خط عرض واحد تقريباً . وكلما اتجه الروس نحو الغرب ابتعدوا من المستنقعات ، وبلغوا الأقاليم ذات التربة الجافة .

ولهذا القطاع شعبة تتجه نحو بلدة بيالستوك إلى الشمال من برست ، ولكن وجهتها لا تكاد تختلف عن الاتجاه العام لهذا القطاع الأوسط .

وفى الجنوب قطاع خامس ، لم يبدأ الزحف فيه إلا منذ نحو أسبوع ، وهو فى الطرف الجنوبى من أوكرانيا ، وإلى الشمال من جبال الكربات ، زحف الروس هنا نحو مدينة لبرج (أو لفوف) ، فإذا كانت بغيتهم أن يتابعوا الزحف نحو الغرب ، فإن الطريق هنا يجتاز مسالك لا تخلو من المرتفعات والمنخفضات ، ويفضى فى النهاية إلى كراكاو ، المدينة البولندية العظيمة ، ثم إلى الإقليم الصناعى الألمانى فى سيليزيا العليا .

تلك هى القطاعات الخمسة ، التى يشتد الزحف الروسى فى كل منها ، ويسرع فى أحدها تارة ، ويهدأ فى الأخرى ، طبقاً لما تقضى به الحرب . ولا شك أن هنالك تفاوتاً عظيما بين هذه القطاعات ؛ وأن بعضها — إذا نجح فيه الزحف الروسى نجاحا باهراً له أثر أعظم فى تقرير مصير هذه الحرب ، والتعجيل بانتهائها . وربما كان القطاع الخامس المتجه نحو سيليزيا العليا ، أو القطاع الأوسط الموجه نحو برلين ، هو من الناحية الحربية والاستراتيجية ، أجل خطراً من سائر الميدان ، وأحق أن نرقبه وأن نتتبع أنباءه .

ولكن أكثر الناس اليوم مهتم بأنباء القطاع الشمالى ، المتجه صوب بروسيا الشرقية ، مع أن نتائجه الحربية قد تكون أقل خطراً . وذلك لأن قطاع جرودنو بوجه خاص قد قرب الجيش الروسى من أرض ألمانية . والدنو من حدود أية أرض ألمانية هو فى ذاته أمر يلفت العقل ، لأنه شئ غير مألوف ، وكان الناس يعدونه شيئاً بعيد الاحتمال ؛ فقد انقضت عشرات السنين ، دون أن يقترب جيش أجنبى من حدود ألمانيا . وانقضت الحرب العالمية سنة ١٩١٨ ، بهزيمة ألمانيا ، ولكن أرض ألمانيا ظلت سليمة ، لم يقترب منها جيش ، اللهم إلا فترة قصيرة من الزمن ، وذلك عندما توغل الجيش الروسى فى أوائل تلك الحرب داخل الحدود الألمانية . وفوق هذا فإن أشخاصاً كثيرين — حتى من المحايدين — يودون أن يروا الحرب تدور فى أرض ألمانيا ذاتها ، لكى يروا ، هل يخرب الألمان مدنهم أثناء تراجعهم ويحرقون قراهم ، ويدمرون كل شئ يصلح للعدو ، كما كانوا يفعلون فى أرض غيرهم . من أجل هذا نرى متتبعى الأنباء فى كل قطر لا يعنيهم القطاع الجنوبى بقدر ما تعنيهم أنباء الزحف على حدود الأرض الألمانية .

والأرض الألمانية ، التى يزحف عليها الروس من موضعين ، هى بروسيا الشرقية ، وهى إقليم فذ فريد بين جميع الأقطار الألمانية . فهو فريد لأنه أفرد عن سائر ألمانيا وفصل عنها بمعاهدة فرساى ، وامتد بينه وبين سائر ألمانيا ذلك الممر البولندى الشهير ، الذى أنشئ ليمكن لبولنده من الاتصال بالبحر . وهو فريد لأنه من الأقاليم القليلة

فى أوربا التى كثر عليها التطاحن والتشاحن ، وارتوت تربتها بالدماء أجيالا طويلة . ومع أنه ليس إقليما غنيا ، فإنه هو وطن الأرستقراطية الحربية الجرمانية ، وذلك بحكم نشأته وتطوره التاريخى .

تقع بروسيا الشرقية ما بين نهر النيمن فى الشرق ، والفستولا فى الغرب على وجه التقريب ؛ ولها إقليم صغير فى شرق نهر النيمن ، تعودنا أن نطلق عليه إسم إقليم ميمل ، وذلك تبعا لاسم البلدة الوحيدة الهامة فيه ، وهى ميناء ميمل . فقد رأى الحلفاء بعد الحرب الماضية أن يهبوا إقليم ميمل لجمهورية لتوانيا ، لأنه يشتمل على ميناء ، وليس للجمهورية ميناء آخر صالح لتجارتها ولاتصالها بالعالم الخارجى . وإقليم ميمل هذا ضئيل المساحة قليل الخطر بالنسبة لبروسيا الشرقية ولألمانيا كلها ، ولكنه عظيم للجمهورية الناشئة ، ولبروسيا الشرقية موانى أجل وأعظم ؛ مثل تلست على نهر النيمن ، وكونجسبرج والبنج وغيرها ، ورغم هذا فإن زعيم ألمانيا وجه إلى حكومة لتوانيا إنذاراً فى مارس سنة ١٩٣٩ بأن تسلم إقليم ميمل ، فلم يسع الجمهورية الصغيرة إلا الامتثال .

وليست بروسيا الشرقية إقليما كبيرا ، فساحتها لا تتجاوز ٤٠٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ، وسكانها لا يتجاوزون الثلاثة الملايين . ولكن لها موقعاً ممتازا ، فهى تمثل امتداداً عظيما ، نحو الشرق ، للأراضى الألمانية . وقد انتشرت الجماعات الجرمانية فى العصور الوسطى على السواحل الشرقية للبحر البلطى ، ولكن الانتشار فى بروسيا لم يكن مجرد انتشار ساحلى ، بل توغل برى أيضا . وفى أثناء الهجوم على روسيا كان لمكان بروسيا الشرقية المتقدم فائدة عظيمة ، لأنه يمكن من حشد الجنود ، وتركيز المعدة الحربية فى نقطة متوغلة فى أرض العدو . ولهذا السبب نفسه نرى اليوم أن هذا الإقليم بالذات هو أول الأقطار الألمانية تعرضاً للغزو الروسى ، كما كان هو المعرض لزحف جيوش القيصر الروسى فى أغسطس سنة ١٩١٤ .

ومن المفيد أن نعرف كيف انتشر الألمان نحو الشرق إلى هذا المدى البعيد وكيف استطاعوا أن يجعلوا من بروسيا الشرقية وطنا لهم . إن البروسيين القدماء لم يكونوا من الجرمان ، بل كانوا جيلا من الصقالبة الوثنيين . وفى القرن التاسع والعاشر أخذت المسيحية تنتشر فى الغرب وفى سهول ألمانيا وبولنده ؛ وبذلت جهود كبيرة لتنصير أولئك البروسيين فذهبت كلها عبثاً ، وظلت جموعهم على وثنيتها وهمجيتها إلى القرن الثالث عشر .

وتاريخ بروسيا الشرقية مرتبط أشد الارتباط بتاريخ الفرسان التيوتونيين ، الذين لا تزال تقاليدهم راسخة فى البلاد إلى اليوم ، وإليهم يرجع الفضل فى تحويل الإقليم إلى النصرانية ، وصبغه بالصبغة الجرمانية .

والفرسان التيوتونيون عبارة عن جماعة أو طريقة أو « مذهب » من المذاهب الدينية العسكرية ، التى نشأت فى أثناء الحروب الصليبية فى أرض فلسطين . وقد نشأ المذهب التيوتونى فى أوائل القرن الثالث عشر بالقرب من عكا ، فى وقت انتشر فيه الطاعون بهذه المدينة . فتأسس المذهب المذكور للعناية بالمرضى ، ومعالجتهم ؛ وقد ظلت العناية بالمرضى والإنشاء المستشفيات جزءا هاما من أعمال الفرسان التيوتونيين ، ولكنهم لم يكونوا مجرد رجال وحبهم الشفاء من الداء ، بل كانوا أيضا رجال حرب ، يعملون للفتح والغزو ، ونشر المسيحية بسن الرمح وحد الحسام ، وكانت أكسيتهم البيضاء تخفى تحتها دروعا من الفولاذ . وانتشر المذهب وكثر أعضاؤه فى الأرض المقدسة ، وفى بلاد الألمان نفسها ، حتى كان له رئيس أكبر فى فلسطين ؛ ورئيس جرمانى فى أوربا .

فى عام ١٢٢٨ دُعِىَ أبطال المذهب إلى تنصير البروسيين ، وباركت السدة البابوية خطاهم ومساعيهم ؛ فاندفعوا يعملون السيف فى أولئك الوثنيين ، حتى أخضعوهم أو قتلوهم . ولا شك أن عددا كبيرا من البروسيين قد لقى حتفه فى هذا القتال الطويل حتى ليزعم بعض غلاة المؤرخين أن جميع الرجال قد قتلوا عن آخرهم ... ومهما يكن من شىء ، فإن الغزاة لم يكتفوا بالفتح والغزو ، بل أخذوا يستعمرون القطر ، ويجلبون له المهاجرين الألمان من الزراع والتجار ورجال المدن . وأخذوا ينشئون الحصون

الضخمة ، التي كانت من غير شك شديدة المنعة في زمانها وأعظمها حصن مارينبرج على نهر فستولا ، وهو مقر الرئيس الأكبر .

وقد كان مقر الرئيس الأكبر للمذهب التيوتونى أول الأمر في عكا ؛ فلما فشلت الحروب الصليبية في الشرق ، وسقطت عكا في عام ١٣٠٨ ، انتقل هذا الرئيس إلى مارينبرج ، وتقلد زعامة الحكم ، بعد أن كانت معظم السلطة في أيدي وكيله الرئيس الجرماني . وأصبح لهذا الرئيس الأكبر بلاط كبلاط الملوك ، يحيط به الرؤساء والوزراء .

ووزعت الأراضي في روسيا بين الفرسان ، وأصبح كل منهم أميراً في مقاطعته وقلعته ، ومنهم تألفت الأرستقراطية العسكرية التي لا تزال من أهم ما يمتاز به ذلك القطر الشرقي الذي بات قطراً جرمانياً خالصاً ، تحكمه طبقة أرستقراطية قليلة النظير في أي جزء آخر من الوطن الألماني الأصلي .

كان الاستيلاء على روسيا الشرقية أكبر عمل قام به الفرسان التيوتونيون ؛ وكان جزءاً من تلك الحركة الهامة التي اشتهرت باسم « الزحف إلى الشرق » Drang nach Osten التي امتاز بها التوسع الألماني من القرن الثاني عشر ؛ والتي لا تزال شعاراً يلجأ إليه الألمان كلما حدثهم الشوق إلى التوسع والاستعمار .

ولا شك أن النجاح الباهر الذي صادفه الفرسان من جهة ، وما قد يبدو في أعمال طائفة منهم من العدوان والغطرسة من جهة أخرى قد أوغر صدور جيرانهم ، مثل المملكة البولونية في الجنوب ، ومدن هنزا في الشمال . وفي عام ١٤١٠ دارت معركة بين الفرسان وبين جيش بقيادة ملك بولنده لادسلاوس . وقد التقى الجيشان في تاننبرج بروسيا الشرقية ، وأمكن لملك بولنده أن يسحق جيش الفرسان ويمزقه كل ممزق . وكانت هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة كهيئة منظمة ذات سيادة .

وانتهزت العناصر المختلفة التي كانت تبغض الفرسان هذه الفرصة ، وألفت اتحاداً سمته « العصبة البروسية » .

وكان قوام العصبة المدن البحرية مثل كونجسبرج ودانزج وجماعات القسس ، والنبلاء الوطنيين وغيرهم . وهؤلاء قد اتفقوا فيما بينهم ، وأرسلوا وفداً إلى ملك بولنده ليعرض عليه أن يضم بروسيا كلها إلى ملكه .

ولكن ملك بولنده اكتفى بأن يضم بروسيا الغربية ودانزج وبلاداً أخرى ، تاركاً للفرسان بروسيا الشرقية يحكمونها تحت إشرافه ورعايته .

وظل رئيس المذهب التيوتونى يحكم مقاطعة بروسيا الشرقية ، مع الخضوع الرسمي لبولنده ، إلى أن آلت بروسيا الشرقية بالوراثة إلى أمير براندنبرج ، ومقره في برلين ، في عام ١٦١٨ . ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من المملكة التي أطلق عليها فيما بعد اسم مملكة بروسيا ، وعاصمتها برلين .

وهكذا تقلبت الظروف على بروسيا الشرقية ، ومرت عليها الأحداث الكثيرة . ولئن كان مجدها القديم قد زال عنها ؛ فإنها لا تزال وطن الفروسية الألمانية ، والنبلاء العسكريين الذين يحنون دائماً إلى إثارة الحروب وخوض غمار القتال . وقد دارت أجيال على الأرض البروسية وهي خليقة حروب دائمة . وليس في الأراضي الألمانية كلها قطر شهد من الحروب ، وارتوى من الدماء ، بقدر ما لقي هذا القطر .

وفي عام ١٩١٤ كان أول هجوم روسيا القيصرية على ألمانيا في بروسيا الشرقية ، وقد توغل الجيش الروسي حتى اقترب من حدودها الغربية ، ثم لقي بعد ذلك هزيمته المشهورة في معركة تاننبرج الثانية .

واليوم تدنو الحرب مرة أخرى من بروسيا الشرقية ، ولكنها ليست حرباً بين جيشين يسعى كل منهما للقضاء على صاحبه ، بل هي حرب جيش روسي يتقدم من الشرق ، وجيش ألماني يحارب متراجعاً نحو الغرب . وقد طال أمر هذا التراجع ، حتى بات من الصعب أن نلتمس له ذلك العذر القديم ؛ وهو التراجع طبقاً لخطة موضوعة . والأيام المقبلة كفيلة أن ترينا إذا كان الجيش الألماني سيقف أمام حدود وطنه ليذود الغزاة عنه ، أم يستمر تراجعه إلى ما وراء بروسيا الشرقية .

محمد عوض محمد

نظرات عابرة :

شاعر النيل

المرحوم حافظ بك إبراهيم

[بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاته]

لبّى شاعر النيل المرحوم حافظ بك إبراهيم نداء ربه فى ٢١ يوليو من عام ١٩٣٢ ، وقد مرّت من ذلك التاريخ اثنتا عشرة سنة ، كنا نسائل أنفسنا خلالها : هل حقيقة مات شاعر النيل ، وهل غاب بلبله الصدّاح إلى الأبد ؟

أما أن حافظا قد انتقل إلى الدار الآخرة ، وغاب جسمه فى التراب ، ولم نعد نراه كما كنا نراه من قبل ، ونجادله فى شتى المواضيع فنؤخذ بسحر لفظه وبيانه ، ونستمتع بحلو حديثه وعذب أنغامه ، فلا شك فيه ؛ أما حافظ الشاعر الذى يصور شعره مطامع الأمة ، ويعبر عن أدق ما يحسه الأفراد وتختلج فى صدورهم من عوامل الألم والأمل ، فلم يمت . وهذا شعره حى فى الصدور يتغنى به الناس فيردد على ألسنتهم ذكراه .

رحل حافظ وخلف بعده ثروة من الشعر جعلته فى طليعة الشعراء الذين ستحفظ مصر ذكراهم ، وتلقنها للأجيال جيلا بعد جيل ؛ ولكن أى مكانة كان يحتلها حافظ بين أولئك الشعراء ؟ ولأى من الأسباب كان حافظ شاعر النيل الحبيب إلى أبنائه ، القريب إلى قلوبهم ؟

* * *

كان حافظ ، كما يقول الأستاذ عباس العقاد[1] ، وسطا بين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى وما بعدها ، وبين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرن العشرين ؛ فهو نديم يلقى جميع سامعيه ، ويعاشرهم فى المجالس ، ويطيب خواطرهم بالمُلَح والأحاديث ؛ تراه فى الأندية السياسية بين الساسة والزعماء ، وتراه فى حلقات الدرس بين رجال العلم والدين ، وتراه فى مجامع أهل الأدب والفن وفى المقاهى العامة بين الأصدقاء والأحباب ، تراه فى كل هذا بين مجادل ومساجل ومطارح للشعر ، ومتندر بحلو النكات وطريف القصص ... ورجل يخاطب قراءه من وراء المطبعة أو ستار التمثيل ، تقرأ له ولا تراه .

وكان حافظ وسطا بين شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية ، لم يهمل الناحية القومية ، ترى ذلك واضحا فى كلامه عن اللغة الفصحى ، وعن السفور والحجاب ، وعن مشروع الجامعة الذى يقول فى الحث على تعضيده :

حيوا كذا أحيوا العلم والأدبا
إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حياة لكم إلا بجامعة
تكون أمًّا لطلاب العلا وأبا
تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة
من المعالى وتبنى العز والغلبا
ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم
ضعوا النضار فإنى أصغر الذهبا
وابنوا بأكبادكم سوراً لها ودعوا
قيل العدو فإنى أعرف السببا[1]

ولم يهمل حافظ الناحية الشخصية ، تلمس ذلك فى شكواه وهزله ، وفى مساجلاته ، وفيما يبدو فى قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات طبعه . يقول فى وصف سعيه المتواصل وبؤسه وإبائه ، وتمنيه الراحة من

(١) شعراء مصر ، للأستاذ عباس محمود العقاد ، صفحة ١٤ وما بعدها .

(١) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

ذلك بالموت :

سلام على الدنيا سلام مودّع
وأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
أضرّ به الأولى فهام بأختها
فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهيّا ومح الموت نكّبنا وأطفئى
سراج حيـاتى قبل أن يتحطما
فما عصمنى من زمانى فضـائلى
ولكن رأيت الموت للحر أعصما[1]

وكان حافظ من الشعراء الذين لم يستطيعوا الاستغناء بثقافتهم العربية عن غيرها من الثقافات . ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا التبحر فى تلك الثقافات ليقال إنهم من عارفى أسرارها وخفاياها ، أو من الذين تأثروا بها وطبعوا بطابعها . يقول الأستاذ أحمد أمين بك :

« وقد كان حافظ يلم بالفرنسية [illegible] الإطلاع على شىء من آدابها ، وقد ترجم البؤساء لفكتور هيجو ، وترجم بعض قطع لجان جاك روسو ، واشترك مع الأستاذ خليل مطران فى ترجمة كتاب « موجز الاقتصاد » ، وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الإنجليزى ، كما ترى أثر ذلك فى ترجمته لبعض قطع شكسبير ، ولكنه على كل حال لم ينل حظا وافراً من الأدب الغربى ، ولم يكن أثر ذلك كبيراً فى شعره ، إنما شعره — على الأكثر — نتاج الأدب العربى ، والثقافة العربية ، والتجارب الشخصية »[2] .

وكان حافظ فى أول عهده بنظم القريض يمثل مبالغة الأقدمين فى شعره ، ولا سيما فى المديح ، ترى ذلك واضحا فى قوله مهنئاً سليمان أباظه باشا بإبلاله من مرض ألم به :

إذا سرتَ يوما حذّر النمل بعضه
مخافة جيش من مواليك يغشاه
وإن كنت فى روض تغنّت طيوره
وصاحت على الأفنان : يحرسك الله
وكان (ابن داود) له الريح خادم
وتخدمك الأيام والسعد والجاه[1]

فلما تقدمت به الأيام وعرف من أحوال الأمة الشىء الكثير ، وخبر أخلاق رجالها ، خفف من غلوائه ، وقرُب من قصد المحدثين ، وكان مديحه يمثل مراحل الأدب والحرية القومية فى الأمة مرحلة بعد مرحلة .

وكان حافظ وسطا بين من يميلون إلى الشعر القديم ومن يميلون إلى فنون جديدة فيه ؛ قرأ شعر الأقدمين [illegible] به وحاكاه ، ثم ثارت به شعره على هذا القديم يحاول الفكاك من تقليده تمشياً مع النزعة الأدبية الحديثة ، وقد قال فى ذلك :

آن يا شعر أن نفك قيوداً
قيّدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا
ودعونا نشم ريح الشمال[2]

* * *

وعاد شوقى وحافظ من سفرهما إلى الخارج : الأول من أسبانيا حيث اللهو واللذة ، وحيث العلم والأدب والفن ، والطبيعة المبتسمة والجمال الفنى ؛ والثانى من السودان حيث النكد الذى لا يفيد ، والعناء الذى لا يغنى ، وحيث الشمس المحرقة والطبيعة المظلمة القاسية . عاد الأول مبتهجا راضيا بحياته ، وعاد الثانى حزينا كئيبا ساخطا على الدنيا وعلى الناس . يقول الدكتور طه حسين بك :

« نعم ، عاد الشاعران إلى القاهرة فى هـذه الحال ،

(١) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .
(٢) مقدمة الديوان بقلم الأستاذ أحمد أمين بك صفحة ٢٢ .

(١ ، ٢) نفس المصدر الأول .

واستقبل كل منهما أهل القاهرة بما أمكن أن تتغنى به نفسه من الشعر ، وسمع أهل القاهرة غناء حافظ وغناء شوقي ؛ فأعجبوا بشوقي وأحبوا حافظا . وكذلك انتقل إعجاب القاهرة بشوقي إلى أهل مصر ثم إلى الشرق العربي ، وانتقل حب القاهرة لحافظ إلى أهل مصر ثم إلى أهل الشرق العربي ؛ ثم مات حافظ فحزنت عليه مصر والشرق حزن المحب ، ومات شوقي فحزنت عليه مصر والشرق حزن المعجب »[1] .

فما هي الدوافع التي جعلت مصر والشرق العربي يحبان حافظا هذا الحب ، فإذا مات جزعا لموته وحزنا عليه ذلك الحزن ؟

ولد حافظ ونشأ في أسرة من الشعب تحس إحساسه ، وتشعر شعوره ، تفرح لما يفرحه وتألم مما يتألم منه ، فطبيعة نشأته كانت تقرب بينه وبين أفراد الشعب . ولم يكن هناك ما يحجب أحدهما عن الآخر ، على الرغم من صداقته لكثير من عظماء الأمة وساستها ، وعلى الرغم من صداقته لرؤساء الأسر العريقة . وهكذا أحب حافظ الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً ؛ وصور نفسه في شعره فصور الناس جميعا .

وكان حافظ أمنية أشاعت السرور في قلب والديه ، وفتحت في صدريهما أبواب الأمل ، ولكنه لم يكد يتم العامين من عمره حتى مات والده ، وما هو غير قليل من موت هذا الوالد حتى توفيت والدته ، وقد خلف له موتهما اليتم المبكر ، والألم الممض ، والحزن الذي تغلغل في أعماق نفسه ؛ ولقد أحب المصريون حافظا لهذه المتاعب والآلام التي تحملها منذ الصغر .

وأحب المصريون والشرق العربي حافظاً لغير هذا وذاك . يقول الدكتور طه حسين بك : « كانت نفس حافظ بسيطة يسيرة ، لا حظ لها من عمق ولا تعقيد ، وكانت لهذه الخصال نفسها محببة إلى الناس مؤثرة فيهم ، وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه النفس البسيطة اليسيرة ، فأحبوه كما أحبوا مصدره ، وأعجبوا به كما أعجبوا بينبوعه »[1] .

ورأى حافظ ما تعانيه الأمة من فوضى الأخلاق ، وأحس شكاة الأمة من شدة وقع الاحتلال ، وأدرك تضييق الغرب على الشرق ، فثارت نفسه وبرمت بتلك الحال . وكان حافظ قد صادق زعماء الوطنية وقادة الرأي ورجال الإصلاح ، فتأثر بهم وأدرك آمالهم ، وما هو إلا قليل حتى عملت هذه العوامل كلها في نفسه ، وإذا به قد خرج على الناس قيثارة رددت شكواهم ، وأذاعت آمالهم .

يقول الأستاذ أحمد أمين بك : « كان حافظ في شعره يقف موقف الصحافة الوطنية ، والخطباء الوطنيين ، وقادة الرأي الاجتماعيين ، يغشى مجالس كل هؤلاء ، ويتعرف من شعورهم ، ويستمد من وحيهم ، ويغذي عواطفه من عواطفهم ، ثم يخرج ذلك كله شعراً قوياً ملتهباً يفعل في النفوس — وذلك شأن الشعر الحي — ما لا تفعله الخطب والمقالات »[2] .

ضاقت الأمة بظلم الاحتلال وقسوته ، فعبر حافظ في شعره عن هذا الضيق ؛ وأملت الأمة في المستقبل آمالا عريضة تحدث عنها حافظ ورسم حولها صوراً براقة جذابة ؛ وبكت الأمة لما حل بها من نكبات ، فبكى حافظ لبكائها . قال في حادثة دنشواي :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا
وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق
بين تلك الربا فصيدوا العبادا

(١) حافظ وشوقي ، للدكتور طه حسين بك ، صفحة ١٩ .

(١) نفس المصدر صفحة ١٩٨ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا

... ...

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أقصاصا أردتم أم كيادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أنفوسا أصبتم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التف
تيش عادت أم عهد نيرون عادا
كيف يحلو من القوى التشفى
من ضعيف ألقى إليه القيادا
إنها مثلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم
إنما يكرم الجواد الجوادا[1]

ولهذا أحب المصريون حافظا ، فقد كان شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة والاجتماع ؛ وقصائده تزخر بهذا كله ، وترتسم صورة واضحة لهذا كله .

واتسع الأفق أمام حافظ فحلق فى سماء الشرق يدعو إلى الوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية ، وينادى بالقضاء على من يبذر بذور البغضاء بين شعوبه ، ويطالب بتبادل المنافع بين أجزاء هذا الشرق ، ويردد فى شعره آماله ، ولذلك أحبه الشرق ، فلما مات بكى لوته وحزن عليه حزن المحب .

كان صوت حافظ يسرى فى جمهور سامعيه سريان الكهرباء فى أسلاكها ، وكان حافظ يسرهم بهذا الصوت ، ويأخذ عليهم مشاعرهم ، ويلعب بأفئدتهم ، يستخفهم تارة ، ويحزنهم تارة أخرى ، ويثير نفوسهم مرة ، ويبعث فيهم الهدوء والرضا مرة أخرى . يقول المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى :

« ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتا جهيراً فخما رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزاً ، ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات »[1] !

ولذلك كان الناس يحبونه ، ويسرعون إلى مجلسه والإصغاء إليه .

رحم الله حافظا ، فقد كان شعره صدى لأفراح الأمة وأحزانها ، وقيثارة رددت آمال الشرق العربى ؛ رحمه الله فقد كان صورة صادقة لنفوس المصريين ، وقد استحق بجدارة أن يكون شاعر النيل الذى يبكيه ويحزن عليه .

عبد المنعم عمارة

(١) ديوان حافظ إبراهيم طبعة دار الكتب .

(١) فى المرآة المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى صفحة ١٢٠ .

٢ - الحروف اللاتينية وإصلاح الكتابة العربية

الفرق بين حروف المد والحركات :

يخيل إلينا أننا استطعنا ، فيما تقدم ، أن نثبت بالأدلة الفنية وجوب استبقاء الحروف العربية ، لأنها أصلح من اللاتينية ؛ غير أن المعترض قد يقول : لعل كل الذى ذكرت صحيح ، ولكنك نسيت أن المشكلة الأساسية فى الخط العربى خلوه من الإشارة إلى الحركات فى صلب الكلمة ، وأن الحروف اللاتينية ، بإدخالها صوراً مستقلة للحركات (الفتح والرفع والكسر) تخدم اللغة العربية خدمة تتضاءل معها انتقاداتك الفنية عليها ؛ أو تستخف بشأن هذا الإصلاح ، الذى يجعلنا نقرأ كما نكتب ، ونكتب كما نقرأ ، ويقضى على الأمية المتفشية بيننا ، والتى تؤخر رقينا ؟

كلا ! لا أستخف به ، بل أجله وأعظمه ؛ ولكنى أرى أنه محاولة خاطئة ، سيئة النتيجة ، ودليلى على ذلك التاريخ وعلم اللغات . حتى إذا أثبت بالدليل ، على أن الأمر المنشود من استبدال الحرف اللاتينى بالعربى ، وهو بيان الحركات بحروف مقحمة فى أصل الكلمة بعد الحرف أمر تأباه ملكة اللغات السامية ، إنى إذا استطعت ذلك رددت آخر اعتراض للمعترضين . وها أنذا فاعل .

ذلك أن فى اللغات السامية ، كما قرره علماؤها ، إذا أردت أن تضع لمعنى من المعانى لفظاً يدل عليه ، ركبت من الحروف الصامتة Consonnes و من حروف العلة Semi-voyelles أو من حروف المد Voyelles كلمة أصبحت مصدراً لهذا المعنى ؛ ويخرج من هذا المصدر اشتقاقات كثيرة تدل على حالات زمنية أو شكلية لهذا المعنى ؛ ولكن هذه الاشتقاقات تحافظ على حروف المصدر وتدل على معناه . قال كاهن Cahen : « إن أصل الكلمة فى اللغات السامية هو المصدر Racine ، ولكل مصدر عدد من العناصر الأساسية تكوّنه ؛ هذه العناصر هى بصورة عامة الحروف الصامتة ، وقد تكون حروف المد بالتناوب مع حروف العلة أو الحروف الثابتة . والعناصر الأصلية لا تتغير فى الكلمات المشتقة من المصدر ؛ وهى وحدها التى تدل على المعنى المقصود ، فعلا كان أو اسماً . وتظهر الأهمية الخاصة للعناصر المكونة للمصدر ، تظهر عما للكلمة من معنى ، فى الكتابة التى تكتب بها اللغات الشامية والسامية ؛ فالأصل أن الحروف الصامتة وحدها هى التى ترسم »[1] . وقال إسرائيل ولفنسون : « إن اللغات السامية تعتمد على الحروف Consonnes وحدها ، ولا تلتفت إلى الأصوات Voyelles بمقدار ما تلتفت إلى الحروف ، ولذلك لم يوجد بين الحروف علامات للأصوات كما هى الحال فى اللغات الآرية[2] » .

لا نخرج من أقوال العلماء ، أنه لم يدل على الحركات بإشارة فى أصل الكلمة السامية بعد الحرف ، لأنها لا تعد أصلا من أصول الكلمة ، أو عنصراً من عناصرها ، وأن ما يعد أصلا فيها هو الحرف ، أما الحركة فليست حرفاً عندهم ، ولا يمكن أن تدخل فى صلب الكلمة كحرف مستقل ، حتى إذا دخلت ، خالف ذلك معيار اللغة وأصل وضعها ؟!

قد يبدو هذا الكلام علمياً نظرياً بعيداً فى نتائجه التطبيقية ، إلا عن أفهام أصحاب الإخصاء فى علم اللغات ؛ ويعز على ألا تقرب نتائجه إلى أفهام الجمهور ، وذلك

---

(١) Les Langues du monde ص ٨٠ .

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ١٤ وانظر عن أهمية الحروف فى اللغات السامية Les Langues du monde, 97, 117 Renan — Histoire générale des langues semitiques — Paris — Calmann I, 436 — الخط العربى مزاياه وعيوبه للدكتور عبد الوهاب عزام الثقافة ٩/ ٢٧٥ .

ببيان عن الفرق بين الحركة والحرف فى اللغات السامية ، وهى تأبى المماثلة بينهما . ومع أن هذا البيان يقتضى تتبعه إجهاد الفكر ، آثرت إيراده لعظيم فائدته فى الدلالة على ما أقول . وقد اجتهدت فى تبسيطه فوجدت نحاة العرب قد فطنوا للفرق بين الحركة وحرف المد حين سموا الفتح والضم والكسر حركات ، فوصفوا الحروف بها ، فقالوا حركة الكاف من كُتِبَ الضم ، وحركة التاء الكسر ، وحركة الباء الفتح ؛ ثم وصفوا حركات هذه الكلمة وصفاً آخر ، فقالوا بضم الكاف ، وكسر التاء وفتح الباء . فالحركة عندهم هى صفة للحرف لا إضافة إليه ؛ بل قال علماء القراءات : « إن الحركة عرض تحل الحرف[1] » ، بمعنى أنه ينطوى عليها ، أو هى تمتزج به . أما الألف والواو والياء الممدودة ، فقد سميت حروف المد ، وأدخلوها بالحروف الأبجدية لأنها كالحرف ، لها صوت خاص بها . ذلك ما أدركه واضعو النحو العربى ، وما اصطلحوا عليه ؛ فوافقوا به ما ذكره علماء اللغات السامية ، ودلوا على أن الأصل عندهم هو الحرف ، وأن الحركة صفة له لا تستقل عنه ، بل تحله فتطبعه بنغمتها الخاصـة ، ويتصف بتلك النغمة أو بتلك الحركة على تعبيرهم . وأرى لكلامهم تأييداً آخر فى كيفية النطق بالحركة . وقد اختلفوا فى نطق الحركة ، هل يقع قبل نطق الحرف أو معه أو بعده[2] ؛ فقال بعضهم تنطق الحركة قبل الحرف ؛ وقال ابن جنى بعده ؛ وقال أبو على الفارسى وعبد القاهر الجرجانى وأبو حيان وأبو البقاء إنها معه . وأرى أن لكل من هذه الآراء اعتباراً يصوبها بعض التصويب . وبيان ذلك أن الحركة ، وهى فى ذلك تشابه حرف المد ، تحدث من أشياء ثلاثة : من الهواء الذى يخرج من الحلق ، ثم من إطباق اللسان على الهواء بشكل ما ، ثم من إطباق الشفتين عليه بشكل آخر ، أما الحروف الصامتة المتحركة فهى محتاجة إلى هواء الحركة ليحمل صوتها . فإذا اعتبرنا مكان النطق أقصى الحلق ، كان هواء الحركة حادثاً قبل الحرف الصامت ، فجاز جوازاً ما القول بأن الحركة تحدث قبل الحرف . على أن هذا الهواء لا يحدث أثراً إلا بعد أن يتكوّن الحرف الصامت ، فيدع المجال للهواء بالانطلاق ، ومنه وجب القول بأن الحرف يحدثه الحركة . ثم إن الهواء يحمل صوت الحرف الصامت ، يتلوه مباشرة وقبل انتهاء حدوث هـذا الحرف ، شكل انطباع اللسان بالحركة ، فيخرج الهواء من الفم وتجرى عليه الشفتان أثرها بشكل الحركة ، فيظهر مزيج من ذلك ينطلق خارج مجموعة أعضاء النطق ، وهذا المزيج يجيز القول بأن الحركة تنطق مع الحرف .

كذلك وفقت بين الآراء المتناقضة . غير أنه لاشك فى أن صفة خروج الحركة مع الحرف هى التى تطرق أذن السامع فتقترن عنده الحركة بالحرف ويتصف هذا بهـا ؛ وهذا ما قصده علماء العربية من قولهم إن الحركة تحل الحرف . وهذا ما لعلهم قصدوه بمـا قاله برهان الدين الجعبرى فى قصيدته النونية[1] .

والحرف سابق شكله أو بعده وهيا وقول الحق مقترنان

هـذا إذا عنى باقترانهما خروج الحركة من الفم وقد امتزجت بالحرف .

وترى علم الصوتيات Phonetique يؤيد ما ذهبنا إليه ، فيثبت بالتجربة امتزاج الحرف الصامت ببداية حرف المد ، وهو ما يعـادل الحركة فى النطق العربى . قال روسلو Rousselot : « لقد حكم بأن بعض الحروف وهى (الصامتة) لا يمكن نطقها إلا بمساعدة المد Voyelles . وهنا المشمول

(١) شرح الجزرية للأنصارى /ظاهرية/ قراءة ٢٨ ، ٣ ب .

(٢) انظر اختلافهم فى سر الصناعة لابن جنى ظاهرية نحو ١٦٨ ، ١٤ أ — ١٦ أ ؛ وشرح الجرجانى للإيضاح لأبى على الفارسى ، ظاهرية نحو ٣٥٤ ، ٤٣٦ أ — ٤٣٧ أ ، وهمع الهوامع للسيوطى ، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ ، ١/١٩ .

(١) عقود الجمان فى تجويد القرآن ظاهرية قراءة ٥٤ ، ١٦ ب .

لا تستطيع أن تخرج حرفين متتابعين دون أن تقحم بينهما صوت مد. ويختلط حدوث الحرفين (الصامت وحرف المد) حتى يقترن إطلاق Détente أحدهما ببداية الآخر أو بتقلصه Tension ... والاتحاد بين الحرف والمد أقل في الأحرف الحلقية Aspirées منه في غيرها، على أنه في الأحرف غير الحلقية يصل إلى درجة من الوحدة، تتغير معها الصورة الأساسية للحرف الصامت. فلفظ الألف (a) مثلا تأخذ الأعضاء (أي اللسان والشفتان) الوضع المطلوب ومخرج الألف. أما النطق بـ(pa) فإن الشفتين تأخذان أولاً وضعية الـ(ب)، وحين تنفرجان يسمع صوت الألف[1]. وإذا حدث الحرف الصامت وحرف المد من أعضاء مختلفة، تهيأت الأعضاء لنطقهما بآن واحد، ... فيندغم المد في الحرف والعكس بالعكس»[2]. وقد ذكر هذا العالم في فصول مختلفة من كتابه اقتران المد بأصناف الحروف؛ فذكر مثلا إدغام الفاء بالألف، وقال بصددها [illegible] إذن أن هنالك امتزاجا حقيقيا بين صوت الحرف والمد[3]»، وذكر بصدد السين والألف ما يأتي: «ويبدو واضحا كل الوضوح من تسجيل الصوت اقتران الحرف بالمد[4]»؛ وقال بصدد آخر: «يوجد كما رأيت انتقال تجانسي لا شبهة فيه بين الحرف والمد[5]»، ثم يقول: «إن الأثر الذي يتبادله المد والحرف المجاور أمر عام[6]». والذي يؤخذ من بحثه عن امتزاجهما حين النطق أن المد يمتزج بالحرف الصامت حين إطلاق هذا الحرف؛ والإطلاق[7] detente هو الحين الذي يخرج فيه صوت معظم الحروف الصامتة، وتتدفق فيه صوت بعضها الآخر. ويتضح من كلامه أن الحروف يقترن أكثر نطقها وبعض وقت حدوثها (وهو آخرها دوماً وحيناً منتصفها وآخرها معاً) بوقت حدوث أول حرف المد. وأول حرف المد أليس هو الحركة[1] في اللغة العربية؟ بل الأمر أقوى دلالة من هذا، فأية حاجة تدعو اللغات السامية إلى التمييز بين الحركة والمد تمييزاً رأينا أثره، مع أنهما في النطق من أصل واحد ومن طبيعة واحدة؟ أليس إدغام المد بالحرف الصامت هو الذي يعطي الحركة كيانها فيميزها عن المد ويحدد مكانها منه؟!

والخلاصة أن الحركة تندغم في الحروف الصامتة، فهي ممزوجة ومقترنة بها؛ أما حرف المد فيتبعها وإن لم ينفصل عنها. وبيان ذلك في النطق أن اللسان والشفتين تحتفظ بوضعها، بعد نطق الحرف وحركته، فتهتز الحبال الصوتية، ويظل هذا الاهتزاز من الصدر دون انفصال بقية هواء الحركة، فيحدث حرف المد.

ويرى العروضيون — وهم الثقة في موسيقى اللفظ وإيقاع الحروف — يعدون الفرق بين الحركة والمد، فيميزون في أوزان الشعر بين شيئين مختلفين لا ثالث لهما. قال ابن عبد ربه[2]: «اعلم أن أول ما ينبغي لصاحب العروض أن يبتدئ به معرفة الساكن والمتحرك؛ فإن الكلام لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحركاً». ألا ترى أن العروضيين لم يفرقوا بين الحرف وحركته؟! كلا بل ميزوا الحركة عن حرف المد الذي يتبعها، فعدوا حرف المد، كما تعلم، حرفاً ساكناً يتبع متحركاً. كذلك تبين أن

(١) Principes de phonétique expérimentale, Paris Didier, p. 937.

(٢) المصدر السابق ص ٩٤١.

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٢.

(٤) المصدر السابق ص ٤٣٤.

(٥) ص ٤٣١. (٦) ص ٩٤٣.

(٧) ص ٣٢٠ و ٣٣٨، وقد أفرد بحثا خاصا لامتزاج = الحركة بالحرف ص ٣٢٠ فما بعدها، ولامتزاج الحرف بالحركة ص ٣٣٩ — ٣٤٢.

(١) قال ابن سينا: اعلم يقينا أن الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف، وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة والياء المصوتة إلى الكسرة (أسباب حدوث الحروف طبعة ١٣٣٢، ص ١٤).

(٢) العقد الفريد، مصر، المط. العامرة سنة ١٢٩٣، ١٨٨/٣.

٢ – حقوق المرأة

على أنه مضت قرون بعد بابل وروما ، وقرون أخرى بعد الإسلام أمسى ، فيها إلى المرأة أكثر مما أسامت . وقد هضمت حقوق المرأة فى الغرب ، كما هضمت هذه الحقوق فى الشرق ؛ فقد لقيت فى الغرب ضروبا من الغبن نزلت فيها إلى الوضع الأدنى من درجات المجتمع . كانت المرأة فى عصور الإقطاع لازمة من لازمات الإقطاع نفسه ، وكانت العلاقة بينها وبين سيد الإقطاع علاقة مادية محضة . واختلفت دنيا النساء عن دنيا الرجال اختلافا سحيقا ، حتى غدت المرأة إما سيدة سكنت القصر ، أو ساحرة سكنت الكوخ ، أو عذراء سكنت الدير . أما حقوق المرأة فقد كانت مضيعة بين سلطة الكنيسة ، وسلطة البابا ، وسلطة رب الإقطاع .

كذلك غبرت قرون على الشرق الإسلامى نزلت فيها المرأة إلى المكان الوضيع ؛ لأن الحرب كانت من بين النظم الاجتماعية التى قامت عليها معظم الهيئات الإسلامية ، ولأن كثيراً من الشرقيين أحلوا لأنفسهم التسرى واتخاذ الجوارى ، ولأن الترف طغى على الكثير منهم فمالوا إلى اللهو بالمرأة ، ولأن الحياة الفكرية العامة انحطت فى بعض الأحيان ، وأغلق باب الاجتهاد . وتشبث الناس ببعض الذرائع الفقهية الواهية ، فأساءوا فى استعمال الشريعة ، وأفرطوا فى تعدد الزوجات والطلاق والتحجب ، وآمنوا بالأوهام والخرافات .

والفرق بين الغرب وبين الشرق فى ذلك لم يكن إلا فرق وقت فحسب ، فقد بدأت تنجاب هذه الظلمات عن الغرب فى مبدأ القرن السادس عشر ، أى حين كانت النهضة الأوروبية فى إبانها ، لكنها لم تبدأ تنجاب عن الشرق إلا فى القرن التاسع عشر . فلا تصدقن ما يقوله البعض من أن الدين فى الشرق هو الذى نزل بالمرأة إلى منزلها هذا ، فقد أمسى إلى الدين فى الغرب مثل ما أمسى إليه فى الشرق ، وقد ظهرت فى الغرب نفس السيئات التى ظهرت فى الشرق . كان هناك الفسق والفجور ؛ وكان هنا الرق وتعدد الزوجات . كان هناك الانفصال الشرعى لأوهى الأسباب ؛ وكان هنا الطلاق . وكان هناك إهمال شئون المرأة واستعبادها ؛ وكان هنا الحجاب . لكن أوروبا نهضت كما قلنا فى القرن السادس عشر وما يليه ، أما نحن فلم ننهض إلا منذ قرن من الزمان ، والاختلاف بين نظمنا الاجتماعية ونظمهم واضح إذا قدرنا ثلاثة القرون التى تفصل بين نهضتهم ونهضتنا .

* * *

لم تبلغ المرأة الأوروبية حقوقها كاملة إلا فى أعقاب القرن التاسع عشر . وقد كانت الثورة الفرنسية موجهة إلى

الحركة ليست أصلا فى الكلمة العربية مستقلا ، بل هى متصلة بالحرف الصامت تحله وبتصف بها . وهذا تأييد لما ذكره علماء اللغات السامية من أن الأصل فى هذه اللغات الحروف الصامتة ، وحروف العلة التى تتصف بضروب من الحركة والسكون ، ينجم عنها حالات متعددة من المعنى الأصلى للكلمة ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تدخل الحركة أصلا فى المصدر (١) ، لأنها ملازمة للحرف ، لا شأن لها إلا به ، ولا استقلال لها عنه .

وبعد ، فكيف يجوز أن يوضع لها رسم بعد الحرف ، يدل على أنها مستقلة عنه ؟! وكيف يجوز أن تصبح حرفاً ، وهى صفة من صفات الحرف ، ليس لها وجود إلا به ؟! وكيف يجوز أن نرسم لها إشارة بعد الحرف ، وهى لا تلفظ بعده ، بل معه ؟! (يتبع)

يوسف العش

(١) وقد يدخل على حروف المصدر الأصلية حروف إضافية يجمعها قولهم « اليوم تنساه » فينتج حالات من المعنى الأصلى للكلمة ، وهذا لا يعارض ما نحن بصدده .

المساواة ، لكنها كانت تنصبّ على المساواة بين الرجل والرجل ، لا على المساواة بين الرجل والمرأة . وقد بدأت قصة الحياة السياسية فى القرن التاسع عشر بمنح الرجل هذه المساواة السياسية . ومازال هذا المبدأ يغزو الحكومات والممالك ، حتى شمل كثيرا من الطبقات ؛ فمنحت الطبقة الوسطى أولا نفس الحقوق التى كانت للطبقة الحاكمة ، ثم منحت بعض الطبقات الدنيا حقوقا أخرى ما زالت تمتد وتمتد حتى شملت جميع طبقات المجتمع ما عدا النساء . وهنا قامت بين النساء حركات بلغت فى أحيان مبلغ الثورة ، كان من أهدافها أن تبلغ المرأة حقوق الرجل ، وأن تكون مساوية له فى كل شىء : فى حقوقه السياسية ، وفى حقوقه المدنية والاقتصادية والاجتماعية .

حقا لقد كانت المرأة فى أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها من الممالك الحديثة فى حال أحسن من حال المرأة فى أوروبا من جهة المساواة السياسية ، لقد هاجر إلى هذه الممالك كثير من الأوروبيين ونزلوا مستعمرين ، وقد تركت المرأة شئون العمل العنيف للرجل ، ولكنها احتفظت بموضع سام من حيث التحضر والتثقف والتعلم ؛

لذلك كان لها فى هذه الأقطار الجديدة شأن لا يقل عن شأن الرجل ، ولذلك استطاعت المرأة فى مقاطعة يومنج بأمريكا أن تتساوى والرجل فى حق التوظف فى سنة ١٨٦٥ . كان هذا شأن المرأة فى أمريكا ؛ لكن المرأة فى فرنسا ظلت فى مكانها حتى أوائل القرن العشرين ؛ أما المرأة الإنجليزية فإنها لم تُعْطَ حق الانتخاب إلا فى سنة ١٩٢٨ . وقد كانت الحركة النسائية فى أوروبا عاملة مجاهدة طول القرن التاسع عشر ، لأن حقوق المرأة قد أُنكرت عليها ، ولأن المساواة بينها وبين الرجل كانت حلما من الأحلام يهزأ به رجال السياسة ، ويتخيله بعض الفلاسفة ، ولا يجرؤون على الجهر به .

وقد ساءت حال المرأة فى أوروبا حين أقبل عليها عصر الانقلاب الصناعى . فقد كانت النساء قبل ذلك يشتغلن فى منازلهن الخاصة ، لكن الآلات الجديدة لم تترك لهن فرصة للعمل القليل الذى كان يدرّ عليهن بعض المال . لذلك زالت هذه المهن الضئيلة التى كان يمارسها النساء ، وخرجت صناعات ضخمة لم تكن النساء فيها إلا إماء يستعبدهن صاحب العمل . كان النساء يقضين أوقاتهن فى بطن الأرض يجررن عجلات ويمشين على أربع ، وكان بعضهن يقضين أيامهن ولياليهن على المناسج والمغازل ويتعرضن لخطر الموت ؛ ثم كنّ بعد ذلك يسلمن أجورهن الضئيلة فيأخذها الآباء أو الأزواج قسراً ، لأن المرأة المتزوجة لم تكن تستطيع أن تدعى ملكية شىء قبل قانون الملكية الذى صدر فى سنة ١٨٨٢ .

مثل هذه الحال كانت جديرة بأن تبعث كثيراً من المفكرين على التفكير فى شأن تحرير المرأة . وفى الحق لقد وجد المفكرون السياسيون نواة لحقوق المرأة فى القانون الرومانى ، ولكن القانون الرومانى نفسه كان هو المشكاة التى اهتدى بها المشرعون الغربيون خلال القرون الوسطى وفى عصر النهضة . كانت رجعةٌ إلى القانون الرومانى وتنشئة لعنصر الاستقلال عند المرأة ؛ كان كل ذلك هو الأصل فى تحرير المرأة ، لكن المرأة لم تنل حقوقها إلا بعد جهاد طويل عنيف .

وقد ارتفع أول صوت لنيل حقوق النساء فى سنة ١٧٩٢ حينما كتبت مارى واستونكرافت كتابها « فى تبرير حقوق المرأة » . لم يكن للمرأة حين ذاك حق التعلم ولا حق التملك ، ولا حق العمل ، وخرجت مارى واستونكرافت ، وهى زوجة الفيلسوف جودوين ، بكتابها هذا تبشر بكل هذه الحقوق . كانت تعلم أنها تدافع عن نصف مجموع الأمة ، وكانت تريد أن تنتشل النساء من الدرك الذى نزلن إليه ؛ كانت تريد المرأة أن تكون مساوية للرجل فى القانون والسياسة والعمل والتربية

والخلق ، بل لقد كانت تريد أن تساويها بالرجل فى حقوق الانتخاب ؛ وكانت متحمسة فى ذلك كل التحمس ، متطرفة كل التطرف ، لكن البيئة التى استقبلت هذا الكتاب كانت بيئة محافظة سخرت من هذه الأوهام !

ثم يمضى قرن على هذا الكتاب وإذا بالفلسفة السياسية فى إنجلترا تنقلب من محافظة متزمتة إلى حرة تقدمية . بدأ المذهب الديمقراطى يغزو المجتمع الإنجليزى ، فذهب فلاسفة السياسة من أمثال بنتام وجون ستيوارت مِل إلى أن لكل فرد من العقل والتمييز ما يسمح له بممارسة حقوق السياسة ، ولم يُستثن النساء من هذا الذى ذهب إليه بنتام وجون ستيوارت مِل . بل لقد كتب مِل كتاباً عن المرأة بحث فيه أسباب تأخرها وأسباب استعباد الرجل لها ؛ ثم لقد أخرج كتاباً فى سنة ١٨٦١ عن « الحكومات النيابية » ، دافع فيه عن حق النساء فى الانتخابات والتمثيل النيابى ؛ وهو يرى أن المرأة كالرجل تماماً فى اهتمامها بالحكومة الصالحة ، وأن لكل امرأة الحق فى إعطاء صوتها حتى تضمن بذلك الاقتناع بعمل هذه الحكومات ؛ بل هو يذهب إلى أنه إذا كان هناك اختلاف بين المرأة والرجل ، فيجب أن تتقدم المرأةُ الرجلَ إلى الانتخاب ، حيث إنها هى أضعف الاثنين ، وحيث إنها ينبغى أن تعبّر عن رأيها تعبيراً صادقاً . ثم إنه يرى أن المرأة الإنجليزية كانت قد تقدمت بعض التقدم ، وكانت قد اشتغلت بالتدريس والتمريض ، وأنها لم تصبح كما كانت قبل ذلك عالة على الرجل فى كل شىء ، فهى إذن جديرة بأن تأخذ حقها من حيث الانتخابات .

على أن هذا الرأى الذى ذهب إليه فيلسوف سياسى مثل جون ستيوارت مِل ، لم يكن له كبير أثر . لذلك انتقلت الحركة النسائية فى إنجلترة من أيدى الرجال إلى أيدى النساء ، وتألف فى سنة ١٩٠٣ اتحاد نسائى تزعمته مسز بنكهرست . وفى سنة ١٩٠٥ تولت الحكم وزارة الأحرار ، فاتبع النساء وسائل العنف ، لأن الأحرار لم يكونوا أكثر رعاية لمطالبهن من المحافظين ؛ فبدأن فتنة صاخبة ، وتظاهرن فى الشوارع ، وحاولن دخول السجون والإضراب عن الطعام فيها . وظلت هذه الحملة يشهرها النساء حتى قامت الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ ؛ وعند ذلك فقط أعلنت مسز بنكهرست الهدنة ، وخصصت وقتها ووقت النساء فى إنجلترة للعمل المجدى . وحينما تقدم الرجال إلى ساحة القتال تقدم النساء يحملن أعباءهم . وقد عمل النساء فى المزارع وفى المصانع ، وفى صنع الذخائر وسياقة السيارات ؛ وقد برهن النساء فى كل هذه الأعمال على أنهن جديرات بهذه المساواة التى ظللن يطالبن بها نصف قرن أو يزيد . وفى سنة ١٩١٨ مُنح النساء فوق الثلاثين حق الانتخاب ، وفى سنة ١٩٢٨ منحت المرأة الإنجليزية حق الانتخاب المطلق .

* * *

على أنه ينبغى ألا نقف عند هذه الحقوق السياسية ، بل يجب أن ننظر ما وراء هذه الحقوق من الخطوات الواسعة التى اتخذتها المرأة . فقد اتجه القانون الإنجليزى إلى حفظ حقوق المرأة فى علاقاتها الزوجية ؛ فقد أصبح للمرأة المتزوجة الحق فى مِلكية ما تشاء من العقار ، بعد أن كان كل ذلك مِلكاً لزوجها ، وقد مُنحت هذا الحق بقانون صدر فى سنة ١٨٨٢ ؛ ثم كان لها حق رعاية أولادها وحضانتهم ، وقد مُنحت هذا الحق فى سنة ١٨٨٦ واتسع حقها فى هذا الشأن سنة ١٩٢٥ . أما من حيث التوظف فقد فتحت لها أبواب الوظائف العامة ، واستولت النساء على كثير من المراكز فى وزارات الصحة والتربية والبريد . وحينما تألفت مكاتب عصبة الأمم فى سنة ١٩١٩ فتحت وظائفها للمرأة والرجل على السواء . وفى سنة ١٩١٩ أيضاً ظهر قانون إنجليزى يسوى بين المرأة وبين الرجل فى الوظائف العامة . وكذلك خرجت

المرأة الإنجليزية من العشرين سنة الأولى من القرن العشرين وقد كسبت كل الحقوق التي فكرت فيها ماري ولستونكرافت وجون ستيوارت مل . وقد أصبح الآن في مجلس النواب الإنجليزي أربع عشرة عضوة من النساء . وأصبح للمرأة في كل العالم المتمدن هذا المركز الذي أفاد الدول المحاربة في وقت الحرب ، كما أفادها في وقت السلم .

* * *

هذه خلاصة لقصة حقوق المرأة ، وهي قصة كما ترى ذات سياق واحد . وكان الأمر في أمريكا والبلاد الإسكندنباوية أسرع من ذلك بكثير ؛ وكان الأمر في فرنسا أبطأ من ذلك بقليل . لكن هذه الموجة التي شملت أنحاء العالم المتمدن كان لا بد لها أن تصل إلى الشرق الأدنى . وكان عند الأمم المسلمة تلك الشريعة السمحة التي ضمت في أصولها كثيراً من حقوق المرأة ، وكان لا بد لهذه الأمم المسلمة أن ترجع إلى هذه الأصول ؛ لذلك قام فقهاء في الهند مثل سيد أمير على ، وقام فقهاء في مصر مثل الشيخ محمد عبده ، يشرحون حقوق المرأة في الإسلام . وإذا كان قاسم أمين قد تشبع بفكرة تحرير المرأة ، فإنما كان ذلك لأنه عاش في فرنسا ودرس الحياة الفرنسية عن كثب ، ورأى ما منحه النساء هنالك ، وما كان يطالب به النساء ؛ ثم إنه درس حياة المرأة الإنجليزية وحياة أختها الأمريكية ، ثم لم يجد بعد ذلك أن الدين الإسلامي يحول دون كسبها بعض هذه الحقوق .

المنصورة أحمد فاكى

تحية الشاعر

إلى الأستاذ عبد الرحمن الرافعي

قرأ الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتاب تاريخ مصطفى كامل للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك فأعجب بما فيه من أسلوب حسن ، وبحوث دقيقة مستوفاة ، فقال هذه الأبيات الرائعة يحيّي بها المؤلف ، ويحييه بها على هديته النفيسة ، قال :

كاتبٌ كلُّه وفاءٌ وودُّ
ملكٌ في مظاهر الإنس يبدو
ماله في الثبات قبلٌ فتنميــه إليه وماله فيه بَعْدُ
لو تزولُ الجبالُ ما زالَ عمّا
رتئيه لم يَرُعْهُ في الرأي نقدُ
ولو اختـار غيره لشتٌ في
إثره من مواكب العز جُنْدُ
غير أن الفتى رأى العز في الرأ
ي فأمسى في موكبٍ وهو فردُ
قد تلقيتُ من هداياك سِفرًا
فيه عقلٌ فوق العقول وجُهدُ
وبيانٌ تزهى به لغةُ الضا
دِ وسحرٌ من بابلٍ مستمَدُّ
هاتِ من مصطفى أحاديثَ تذكي
همماً للشباب إن جدَّ جِدُّ
ذكّر القوم ما نسُوا من زعيم
كلُّ غرسٍ إلى يديه يُرَدُّ
زرعَ شعب البلاد إن تسيَ العهـ
ـدَ فما بعدَ ذاك للشعب مَهْدُ
ليس يُجدي القتال في الخلد إن لم
يكُ للعبقريّ في الشعب خُلْدُ

أحمد الزين

التمثال النصفى !

لم أكن أدرى لماذا كان أصدقائى يكررون بلهجة مبهمة :

لا بد أنك سترتاح فى هذه الردهة . إذ لم تكن هذه تختلف فى مظهرها عن بقية الردهات ، فهنا وهناك مرضى شاحبون ، تصعد أناتهم الخافتة ببطء ، أو تتحرك أطرافهم على ملل وإعياء بحثاً عن الأشياء القريبة إليهم .

وكان إلى جوار سريرى عجوز طاعن فى السن ، تهتز لحيته البيضاء كلما حرك فمه المريض بطلب من الطلبات الكثيرة ، التى لا ينفك يلح فى إنجازها عاجلا !

وجاء الليل ... وكان ليلاً ساجياً .. ندى النسمات . وكان الشباك المفتوح قليلاً يشرف على حديقة برتقال تبعث بروائح زكية ، وتوحى للنفس مشاعر جمة للتأمل والأحلام . . . أما أنا فلم أكن مبتهجاً لتلك الحياة المضجرة التى تحف الردهة بجمال طبيعى أخاذ ...

انتبهت فى منتصف الليل على لمسة خفيفة فى جبينى الندى بالعرق البارد ، ونظرت إلى صاحبة اليد التى كانت لا تزال مثبتة على مقربة من فودى ...

كانت فتاة ناهدة رشيقة بيضاء ، ذات عينين سوداوين ، لم أر فى حياتى أكثر منهما صفاء ولمعانا ... وكانت أهدابها وطفاء مسترخية ، وعلى فمها ظل من الألم والانزعاج . قلت لها وأنا أتطلع إليها :

أرجو ألا أكون أزعجتك . . . ليس بى الآن من شىء . . . فقالت بصوت هادىء النبرة — . . . لا . . . إن هذا واجبى . . ألا تشعر بشىء من الجوع ؟ . .

ثم تركتنى مسرعة ، فوجدت بعد دقائق إناء جميلاً فيه فاكهة طرية ذات عبق وكوباً من الحليب ! . . .

إذن فقد أخذت أدرك لم كان أصدقائى يقولون بأنى سأرتاح فى هذه الردهة . . وهكذا عرفت فيما بعد أنى أعيش فى ظل أجمل فتاة فى المستشفى ، إن لم تكن أجمل فتاة فى البلد . . .

***

جلست فى ظل شجرة برتقال عتيقة ذات خضرة داكنة ، أتطلع إلى عش صغير فيه حمامة تنوح ... عندما جاءت « ماتيلدا » تقول : — أأنت هنا ؟ .. قلت : أجل ! إن المساء يطيب لى ، وهذه الخميلة الساذجة تهبنى شعوراً جميلاً بحب الطبيعة . فقالت ببشاشة غير معتادة — والمرأة ؟ قلت : مع احترامى لك لا أضمر لها شيئاً كثيراً من الحب . . .

فاتكأت على الشجرة المقابلة وقالت بجد صارم : — ومع احترامى لك أيضاً أقول إنى أكره الرجال ، ويؤسفنى أن أقول هذا بعد إبداء رأيك ، ولا بد أنك ستظن أنى أرد الضربة إليك دفاعا عن جنسى . . ثم أردفت تقول : — هذه آرائى من قبل ، إنى أكره الرجال لأنهم وحوش ... وحسبى هذا الجمال الذى أصبح حمله لا يطاق ... كم كنت أود لو أنى فتاة عادية الجمال فأتخلص من تلك الأعين الشرهة التى تطاردنى فى كل مكان . . .

الكل يتطرق بالإعجاب ، ويمد يده مصافحاً ، ويقترب منى ويبتسم لى ، حتى أولئك الحمقى الذين يجودون بأنفاسهم على فراش الموت ! . . . وإنى لا أعلم لماذا يفعلون ذلك !

وتوطدت بيننا صداقة عميقة واحترام متبادل على عكس ما كنا نأمل ... ومرت الأيام فى أعقاب بعض ، حتى دنا اليوم الذى كان على أن أغادر المستشفى فيه . . . وكان وداع وتهنئة ، وكان أمل إلى لقاء قريب فى أول فرصة أعود فيها إلى العاصمة ! . . .

***

أثقلتنى شواغل الحياة كثيراً ، فلم أذكر الممرضة الحسناء ، برداتها الأبيض ، وقامتها المزدهرة المديدة ، وبسمتها الخفيفة على شفتين حمراوين بدون طلاء . . . حتى ذكرنى

بها كتاب قصير يقول : «أظنك قد نسيت الفتاة التي تكره الرجال !... عُدْ إليّ فقد أصبحت أحبهم ، إني أنتظرك لأني بحاجة شديدة إليك» .

«الحزينة ماتيلدا»

* * *

تلقاني من الداخل صوت حزين ... صوت ماتيلدا بجرْسه الهادئ ، ولكني سمعت في ذلك الصوت الرخيم نبرة الحزن العميق واليأس القيم ... وصعدت السلم إلى غرفتها ، وهي غرفة أنيقة تصعد في جوها عطور من زهور جديدة في أوان من البلور الأبيض المزخرف ... ووجدت هناك تمثالا نصفياً جميلا لماتيلدا ... تمثالا صادقاً لتلك النظرة الصافية العميقة ، والبسمة الخفيفة الطارئة ، وقد وضع على شعرها المسترسل ورد أحمر من ورود القرنفل القاني ، وبدا نهدها الأبيض بارزاً قليلا إلى الأمام ، ثم سمعت صوتها الحزين المبغوم !... :

— لقد نسيتني ... إنك الرجل الذي كنت أحسبه لا يطارد جمالي ... ولا أدري هل أنت كذلك الآن ؟

كان الصوت يأتي من وراء السجف حزيناً دامياً فيه أنة محرقة ، فقلت مذهولا مما أرى :

— ماتيلدا !... إنك تعرفين شعوري تجاهك ... أو تريدين عهداً جديداً من عهود الصداقة ؟... قالت :

— لا أشك في ذلك ، ولكن هل أنت واثق من أنك لم تحب جمالي ؟ قلت وأنا أخفف لوعتها :

— إني واثق تماما ؛ فلا يداخلك الشك في هذه الأمور ...

عند ذاك أزاحت السجف ودنت نحوي بخطوات مترنحة ... ووقفت مذهولا من الهول ، فماذا أبصرت !!

لقد تغير كل شيء في ماتيلدا ، عدا شعرها الأشقر الحريري فقد ظل يترجرج منثوراً على كتفيها ؛ أما وجهها فقد تشوه بشكل محزن مخيف ... فالشفة ذابلة صفراء مخدشة ، والأنف الأبيض الأشم ما كول محفور ...

قلت وأنا أكسب صوتي عدم المبالاة : — أرجو أن تكوني بصحة . فقالت حزينة متعبة : ولكن روحي مريضة تموت ... لقد فقدت الشيء الذي كنت منزعجة منه ، ولكني فقدت بذلك كل شيء ... لقد ذهب جمالي ... لقد تشوه كله ، فلا تنظر إلى وجهي بل انظر تمثالي ... إنه يذكرك بعز ذلك الجمال الذي أظنه قد تبخر من خيالك من بعيد ...

وعند ما قلت لها كيف حصل لك ذلك ؟ .. ذهبت تعدو وراء السجف وهي تقول : — سل أمي ... إني لا أطيق أن أكون معك في غرفة واحدة ...

فهبطت أودع أمها لأسمع صوتها الناحب يقول : ستموت .. وهذا مؤكد ! إن الكمد يمزقها تمزيقاً .. فليتها لم تنم في ذلك اليوم المشؤوم بإشمال وابور النار الذي التهب بوجهها وشوه ذلك الجمال النادر ... كل هذا التشويه !..

وبعد شهرين قرأت في الصحف أنها ماتت ، ولا بد أنها ماتت كمداً على جمالها المفقود كما قالت أمها من قبل ...

بغداد عبد الحميد الطلبي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

****

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة أشهر:
م
في مصر والسودان
٣٧،٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١٥ مليما

الأستاذ عبد الرحمن بدوى وكتبه

للأستاذ عبد الرحمن بدوى أكثر من كتاب . خرج له هذا العام ثلاثة من الكتب أو القصص المترجمة ، هى حلقات من سلسلة اختار « الروائع » عنواناً لها ، وتلخيصا لفكرتها . وله فى العامين السابقين نحو ستة من الكتب ينتظمها اسم آخر يلخص فكرتها ويبرز وحدتها ، هو : « خلاصة الفكر الأوروبى » .

والأستاذ عبد الرحمن بدوى فى هذه السلسلة ، أو فى تلك ، أو فيما ينشره من مقالات ، أو فيما ينشره على سامعيه من آراء ، أو فيما يعتزمه من مشاريع ، يمثل قلق الذهن المصرى الشاب فى هذه الأيام — وهذا الإنتاج الغزير المتدفق ، الذى كان يمكن أن يكون ثمرة جهد طويل مبذول فى التفكير والاطلاع والتأمل ليس إلا صورة من صور هذا القلق .

ولا أحسب أن القارئ غاب عنه المعنى الذى أقصده من كلمة « القلق » ، فلست أقصد الحيرة والاضطراب ، ولا البعد عن الهدف الواضح وتمثله ، والسعى وراءه والعمل على تحقيقه ؛ فعبد الرحمن يعرف جيداً ماذا يريد ، ويحب هذا الذى يريده ويكرره لنفسه ، ويقوله لصحبه ، ويكتبه نظما حينا قليلا ، ونثرا أكثر الأحيان ؛ ولكنه يرى أن الذى يفكر فيه ويراه جديرا بالتحقيق (والتجسيد) ، لا يزال بعيدا جدا فى بلده ؛ ولا يزال يرى مواطنيه الذين يحبهم لا يفكرون فيه ولا يعملون له ، ولا يبذلون فى سبيله ما يبذل ، فلا يعجبه هذا كله ، ويناله غضب كان حريا أن يخرجه عن هدوئه ورزمته ، وأن يطلقه إلى عمل عنيف . ولكنه مفكر وصاحب فلسفة ، وهو أيضا صاحب قلم وقارئ كتب ؛ وإرادة العمل عند المفكرين تتحول إلى نظرية يبسطونها للناس ، ويدافعون عنها ، ويفرجون بذلك من الرغبة فى القتال المكبوتة المحبوسة ، أو إلى عالم ينشئه الخيال تعويضا عن دنيا الحقائق المؤلمة الكريهة .

* * *

والأستاذ عبد الرحمن بدوى نفسه فى مقدمة كتاب « ديوان شرقى لمؤلف غربى » للشاعر الألمانى « جيته » يقول — فيما حفز جيته إلى نظم هذا الديوان :

« كان جيته يعانى حينئذ حالة نفسية عنيفة ، وصفها »
« هو نفسه بهذا الوصف حيث قال : « شعرت شعوراً »
« عميقاً بوجوب الفرار من عالم الواقع الملىء بالأخطار »
« التى تهدده من كل جانب فى السر وفى العلانية . لكى »
« أحيا فى عالم خيال مثالى ، أنعم فيه بما شئت من الملاذ »
« والأحلام بالقدر الذى تحتمله قواى ... » .

ويرى الأستاذ بدوى أن (جيته) ليس فريدا فى هذا الفرار وهذا صحيح ؛ فلكل أديب ، بل كل إنسان عالم يخلقه لنفسه ويهرب إليها ، وليست أحلام اليقظة إلا الفرار من الحياة المادية بوجهها الكريه ، وبما انطوت عليه من فشل مؤلم ، وبما تمخضت عنه من صراع مر وجراحات دامية ، ومهانات أقسى على النفس من قطع السيوف . . . وللكاتب الألمانى الإسرائيلى ستيفان زفايج نظرية سافها وهو يتكلم عن تلستوى الكاتب الروسى العظيم :

« وكانت وثبة تلستوى نحو الإيمان بالله أقصر من »
« أن توصله إلى غايته ، ولكن للفنان الذى يعجز عن »
« عبور خليج ، سبيل آخر يستعين به على تحقيق غرضه »
« — فهو يعرض على الناس جميعا (حاجته) فيجعل من »
« هذه الحاجة (الخاصة) أمراً عاماً . على هذا النهج ارتقى »
« تلستوى بصيحة فزعة (ماذا سيصيبنى ؟) إلى التساؤل »
«(ماذا سيصيبنا جميعا؟) . ولما عجز عن إقناع نفسه بالجواب»
« حاول تعزية نفسه بإقناع الآخرين . ولما عجز عن تغيير »

« حياته ونفسه ، سعى فى تغيير حياة الآخرين . وهذا »
« كان دائماً المعين الأول لكل دين . فتلك المحاولات »
« العظيمة فى هداية الناس وإصلاحهم كانت تنبعث دائماً »
« من رغبة الذين قاموا بها (فى الفرار من أنفسهم) ، فالنفس »
« التى تداولتها أيدى العواصف تبحث عن راحتها من »
« المشكلة التى يعذبها البحث عن حلها بجعلها شاملة عامة ، »
« وبذا يتحول القلق الشخصى إلى قلق إنسانى . . . . »

وزفايج فى هذا يغلو غلواً فاحشاً ، فهو يرى أن كل رسول — رسول فكرة أو رسول عقيدة — يدعو الناس دائماً إلى الإيمان بما عجز عن الإيمان هو به ، أو قل — تلطفاً — إن كل رسول تصادفه مشكلة ويعييه حلها ، يبسطها على العالمين ، ويدعوهم إلى حلها وإلى التفكير فيها ، ولكن صيغة الدعوة تحمل عادة فى ألفاظها ما يوهم أن الداعى قد عرف الحل ، وأحاط بالمسألة ، وأنه يهدى إليه من يثق به ، ويسير وراءه .

وقد يصدق هذا على بعض المفكرين دون عمومهم ، فتولستوى حينما دعا إلى عدم العنف ، وحينما دعا إلى إنكار نظام الحكومة ، وإلى وجوب استبدال قانون الحب بها والعمل بموعظة الجبل التى ألقاها المسيح على تلاميذه ، وحينما دعا إلى إنكار الملكية وإلى التخلى عنها ، حينما هاجم السجون والمحاكم وسك النقود ، لم يفعل ذلك لأنه اهتدى إلى ما بعد هذا الإنكار وهذه المهاجمة من نظام واضح مرسوم يحدد علائق الناس ورتبها ، وإنما لأنه أحس أن الملكية والفقر والغنى وانتفاء المساواة بين الناس مشكلة جديرة بأن تحل ، وجديرة بأن تستنفد من الوقت والجهد ما تستنفده بقية مشاكل الناس ومسائلهم ؛ فإيمانه ينبعث من هذا ويستند إليه ، ينبعث من أنه رأى أن لا مناص من مواجهة هذه المشكلة ، وأن كل أمل فى سعادة البشر بغير حلها سراب . .

* * *

على أننا لا يجمل بنا أن يطول بنا الاستطراد حتى نبعد عن جيتة ، وعن عبد الرحمن بدوى ، فجيته فى رأى عبد الرحمن لاذ بالشرق ، لأن الغرب فى ذلك الحين لم يكن يرضى جيته ، ولم يكن يعجبه ، فنسج لنفسه صورة للشرق أحبها ، وحسب نفسه قد رحل إلى هذا الشرق الهادئ ، فاطمأنت نفسه إلى هذا الخيال السعيد . . .

وما فعل جيته منذ أكثر من مائة سنة يفعله عبد الرحمن بدوى ، ويفعله كل شاب مصرى ، بل كل شاب شرقى . فنحن لا يعجبنا الشرق ، فينسج كل منا صورة لبلاده من خيوط يختارها لنفسه ، ويعيش فى ظل هذه الصورة سعيداً فترة من الزمان ، ثم يستيقظ للحقيقة التى تدعوه إلى حياة كل يوم ، وإلى السعى ، وإلى النزول على حد الواقع .

والخيوط التى ينسج منها الشباب المصريون دنيا خيالهم كثيرة : فمنهم من يعيش فى صدر الإسلام ويحسبه أحق وأجمل ما تصبو إليه مصر ، وهو إذا خرج من حلمه وعاد إلى يومه وآفاق ، وجد نفسه مضطراً إلى اصطناع أمور لا تتصل بالإسلام ، ولكنها تفرج عن الأمل المكبوت ، فهو يحرص على إطلاق لحيته مثلا ، أو يكتب التاريخ الهجرى دون الميلادى ، أو يلح فى مطالعة كتب يختارها ، ويتوفر عليها بحثاً وشرحاً واقتباساً وتعليقاً .

ومنهم من يجد الراحة فى عهد من عهود العرب ، دون أن يهمه كثيراً الطابع الإسلامى ، إنما يشغله الطابع العربى ؛ لأن الجانب الدينى أقل شأناً عنده من الاعتبار السياسى . وثالث يرى هذا كله عبثاً ويعد التراث الإسلامى والعربى حطاماً تخلف عن الزمن القديم ، وأن الدنيا التى يجب أن نسعى إليها وأن نعيش فيها هى دنيا الكهرباء والكيمياء ، ودنيا الحرية والمساواة الاقتصادية ، دنيا الاشتراكية أو النازية أو الشيوعية . وأن العقل الجدير بأن يُدرس هو العقل الأوربى الحديث .

وليست الغاية من هذا المقال المفاضلة بين هذه الأحلام الجميلة، بل لم يكن القصد النص عليها، وإنما أدى القول والاستطراد إلى الإشارة إليها، تعليقاً على ما يقوله الأستاذ عبد الرحمن بدوي في صدد تعلق جيته بأحلامه الشرقية.

* * *

والديوان الشرقي لمؤلف غربي، في رأي الأستاذ عبد الرحمن بدوي، هو وقصة حاثر باثر لأيشندروف، وقصة أوندين لفوكيه «من روائع الأدب الغربي» — وقد عرّف هذه الروائع وحدد سماتها المميزة بقوله:

«كان لها من خطير الأثر في تطور أوروبا الروحي»
«وخلق تيارات فكرية جديدة، وإشاعة قيم خالقة لم تكن»
«معروفة من قبل. وبإيجاز راعينا في اصطفائها أن»
«تكون ممثلة لأعلى ما بلغته الروح الأوروبية من سمو — »
«وأن تكون كفيلة إلى الحد الأقصى بإثراء المضمون»
«الروحي للإنسان».

ولست أختلف مع الأستاذ عبد الرحمن في اعتباره الديوان الشرقي وقصة أوندين من الروائع التي يسوغ أن ينسحب عليها هذا التعريف، ولكن أجدني مضطراً إلى مخالفته في قدره قصة «حاثر باثر»؛ فقد تكون جميلة، وقد يكون مؤلفها صاحب فضل معترف به في الوصف الحي، ولكني لا أحسب أنها تركت في عالم الفكر ولا البيان ما يرفعها إلى سواء «الروائع»، وما يؤهلها لأن توصف بأنها ممثلة لأعلى ما بلغته الروح الأوروبية من سمو — وقد كان جديراً بي أن أتردد في إصدار هذا الحكم لسببين: أولهما أنه لم يسبق لي أن تعرفت على مؤلفها من قبل، فقصة «حاثر باثر» هي أول لقاء بيني وبينه، والعدل يقتضي الناقد ألا يصدر حكمه على المؤلف قبل أن تتوثق الصلة وتتأكد العلاقة. وثاني السببين أن أيشندروف شاعر غنائي، والشعراء الغنائيون يخسرون أكثر مزايا إنتاجهم عندما يترجم من لغتهم الأصيلة إلى لغة أخرى. ولكن الذي حدا بي إلى الخروج من التردد إلى الحسم أمران آخران — أولهما: أن «الروائع» التي حفظها التاريخ، والتي تركت أثراً في حياة الأمم العقلية والشعورية، كانت مكانتها ترتكز في الأغلب الأعم على الموضوع ثم الشكل — فموضوع القصة أو الكتاب يجب أن يكون إنسانيا كبيراً، ينطوي على مشكلة ما وشكلها، أي أسلوبها؛ وطريقة عرضها يجب أن يتسم بسمات مميزة.

وقصة حاثر باثر، تكاد تكون بلا موضوع، والنفوس التي يتناولها المؤلف بالوصف يقنع بظاهرها، فلا يعرض لجوانبها الخفية إلا بقدر، ومع تلهف وسرعة.

وثانيهما: أن الدكتور عبد الرحمن بدوي نفسه قال في مقدمته عن أيشندروف مؤلف القصة:

«هذا هو السر في امتيازه في الشعر وتخلفه في القصة»
«والمسرحية، فالقصة عنده خالية من الأحداث فقيرة»
«في الأشخاص الحية الواقعية، تكاد كثيراً ما تذوب»
«في الإطارات الطبيعية التي تعنى أيشندروف قبل أن تعنيه»
«الأشخاص».

وهذا هو بالضبط الذي يخلص منه القارئ بعد مطالعة هذه القصة، فهي قصة شاعر تشغله مباهج الطبيعة، ويصف النفوس والأشخاص، كما يصف الأنهار والأزهار؛ ولا جدال في أن الشعر لا يتذوقه متذوق إلا في لغته الأولى التي أودع فيها صائغها خفايا معانيه، وحلاوة أغانيه.

ولا يحسبن أحد أني أريد أن أغض من العمل الأدبي الذي اضطلع به الدكتور بدوي حينما ترجم «حاثر باثر»، فقد صاغ ألفاظها ببراعة وحذق، أنسيا الإنسان أنه يقرأ كتابا منقولا عن لغة أخرى — فالنسج محكم، والعبارة عربية أصيلة، من طراز رفيع، والمعاني متصلة متدفقة، والصور كاملة أخاذة، وشعورك طوال المطالعة أن مترجم القصة لا يعاني في أداء المعاني إلى العربية أي جهد.

ولا أخفي عنك أن في القصة صفحات من الشعر

بين المسموع والمقروء

ليس الموت واحداً :

حُكم على رجل بالإعدام فى جريمة قتل ، فطلب أن يُرسَل إلى خط القتال ليموت مقاتلا ، فلم يمنحوه هذا الشرف .

القرش الأبيض :

ينفع فى اليوم الأسود . من أجل هذا تقوم فى هذه الأيام دعاية واسعة بين جنود الحلفاء تستحثهم على التوفير من مرتباتهم استعدادا للسلم القادمة ، حيث يعودون إلى الحياة المدنية ويبدأون العيش من جديد .

ليت لنا من يدعو دعوة كهذه بين الجيوش من عمالنا الذين سيسرَّحون عند ختام الحرب كما يُسرَّح الجنود .

مجهول الموز :

فى الحرب الماضية سمعنا عن قوم وُلدوا أثناءها ونشأوا فلم يعرفوا الجنيه إلا ورقة بنكنوت ، ولم يروه ذهباً إلا فى المتاحف . وفى هذه الحرب ، حين انقطع وارد الموز عن إنجلترا ، نسمع عن طفلة إنجليزية ولدت قبل الحرب بعام تُعطَى موزة فلا تعرف كيف تقشّرها . فلما قُشرت لها فأكلتها لم تستطعمها . وكان غرام الأطفال بالموز قبل الحرب معروف مشهور . كان به يطوَّع الطفل العاصى ويُستأنس الطفل النافر .

نور بعد الظلام :

على الرغم مما يشاع نقيضا لذلك ، قد تحقق أن إظلام القاهرة بالليل سيزول قريباً ، فتضاء المنازل والشوارع والمحلات العامة وعربات النقل والسيارات ، وتعود الحال كما كانت قبل الحرب بالسرعة التى تستطيعها الإدارات الفنية المختصة ، ولا يبقى غير شرط واحد ، هو أن تظل الستائر على استعداد لحجب الضوء توا إذا دعاها الداعى لهذا . وإقبال هذا بعيد .

يدعونهم ليسرقوهم :

زوج شاب وشابة ، فجاءتهم هدايا الأصدقاء ، وكان

الذهبى ، الذى يخلبك رنينه وبريقه ، وهو فى جوهره نفيس وذو قيمة . أما الديوان الشرقى ، وأوندين ، فعملان أدبيان ، طوق بهما الأستاذ بدوى عنق الناطقين بالضاد وقارئ العربية منة كبرى ؛ والنظر فيها يوسع آفاق القارئ .

ونرجو أن نعود إليهما مرة أخرى .

* * *

يقول الدكتور بدوى :

« لن نستطيع النفوذ إلى أسرار الروح الأوربية »
« حقاً إلا إذا وقفنا مباشرة على ما أبدعته هذه الروح »
« من آثار فى مختلف مظاهر نشاطها الروحى ، لأن »
« المرء مهما يبلغ من الدقة فى التحليل والعمق فى »
« اكتناه الأفكار والسعة فى أفق المقارنة ، لا يمكن مطلقا »
أن يغنى عن الاطلاع المباشر عن الأصول الأولى التى »
« يقوم هو عليها . . . . » .

وهذا حق كله ، وهو حق كان جديراً أن يكشف عنه منذ زمن بعيد . فإذا كان الدكتور بدوى قد عقد العزم على أن يحقق للغة هذا الخير العظيم ، أو بعضه ، أو حتى أن يشرع فيه ، فهو جدير من أبناء اللغة العربية جميعاً أن يشكروه وأن يهنئوه ؛ وهو حقيق أن يصل إلى الغاية من هذا المشروع ، فله فى خلقه وفى جلده ، وتلهب إعانه وعلمه ، ما يعينه على النجاح ، وما يؤدى إلى التوفيق . . . !

فخرى رضوان المحامى

من بينها تذكرتان للسينما ، وهى هدية فى حد ذاتها غريبة ، ولعل فى غرابتها إغراء بقبولها . وذهب العروسان يشهدان على الشاشة قصة الخيال الحلو ، فى الوقت الذى كانت فيه تمثل فى دارهما قصة الواقع المر . وعادا إلى بيتهما فوجدا كل هدايا العرس قد ذهبت ، اشتراها اللص القاسى بثمن تذكرتى سينما .

أسبوع الحلاقين :

لأول مرة يغلق الحلاقون محالهم يوماً فى الأسبوع غصبا بقوة القانون ، وتُحدَّد ساعات العمل للعمال فى اليوم بإحدى عشرة ساعة !

قال أحد العمال وهو يقص شعرى : إنه أول القـطر ، سيكون لنا مدرسة ، ويكون مستشفى ، والدواء فيه بالمجان ، ولن يستطيع صاحب الصالون اليوم بعد خدمة أعوام ، إذا غضب من عامله لتافهة ، أن يقول له اخرج فيخرج لتوه . فإذا سأله عنه صاحب محل آخر بعد ذلك قال إنه أخرجه لأنه كان لصًّا . والإخراج اليوم لا يكون إلا بعد تحقيق بحضره ممثل العمال وممثل أصحاب الأعمال .

قلت : فـكم من الأجر تأخذ عن يوم العطلة الجبرى ؟

قال : كيوم المرض ، نصف أجرة .

قلت : فهل ينطبق هذا على الريف ؟

قال : لا . وإنمـا على القاهرة وحدها . وقد تحركت الإسكندرية تطلب تطبيقه .

وقد أكد لى أنه أمر عسكرى ، ولـكنه لم يصدر إلا بعد التراضى بين الطرفين فى حضور مندوب الحكومة . وقد أكبرت فى هذا العامل الحلاق عقله واتزانه ، ثم لقنته . والمنة عندك الثقافة التى لا يخلى أبدا .

مصانع تحت الأرض :

تذهب إلى الريف فتجد الحقول عامرة بالعمل ، ففيها الحرث وفيها الحصاد ، وليس فى ظاهر الأرض ما ينم على ما باطنها من مسارب كمسارب النمل يعمل فيها الألوف من النساء والرجال ، وتدورفيها الـكنات فتحدث من الأصوات المزعجة ما لا يبلغ سطح هذه الأرض وقد خيم عليها سكون الريف .

ومن أمثلة هـذه المصانع محجرٌ فى بطن الأرض ، أُهمِل من زمن فانطوى واندثر ، إلى أن نشرته الحرب الحـاضرة . فهذا المحجر قلبوه مصنعاً ، وفى سبيل ذلك أخرجوا من جوفه مليون طن من حجر وتراب ، ثم أخذوا يصممون المصنع فى تلك الأعمـاق وقد بلغت مساحته بضع مئات من الأميال . واشتغل فى بنائه ٨٥٠٠ رجل ، فـكانت منه مدينة صغيرة تحت الأرض .

ويحمل إليه الرجال بثمانية مصاعد كهربائية ، فهو يبعد عن سطح الأرض أكثر من مائة قدم ، فهو فى منجى من أعنف غارة .

وهواؤه مكيف ، ودرجة حرارته تثبتوها بين ١٥ و ١٨ درجة ، لا رعاية للرجال فحسب ، بل حفظا للآلات الدائرة والآلات التى تُصنَع فيه فهى دقيقة يؤثر فى أطوالها التمدد القليل بالحرارة . وتضاء هذه المدينة الأرضية الصغيرة بضوء « فسفورى » أشبه ما يكون بضوء الشمس ، فإذا خرج العامل إلى ضوء النهار لم تعشَ عينه فيه .

ويدار هـذا المصنع الأرضى على أحدث ما تدار عليه المصانع . ففى غرفة القيادة الرئيسية تُجمَع المعلومات عن سير العمل ، ومنها ترسل الأوامر بالتلفون إلى كل قسم من الأقسام حيثما وقع مكانه .

ولا يعرف هـذا المصنع معنى النهار ولا معنى الليل . فالعمل يجرى فيه ليل نهار ، وإنما يعرف أن العمال يتناوبون العمل فيه على ثلاث دفعات .

والعمال فوق الأرض منازل حديثة . وهى ستة أقسام

يحول بالقسم منهـا ستة آلاف رجل وامرأة . وتتوفر فى هذه المنازل وسائل الطب والتثقيف والرفه .

ولهذا المصنع أمثـال كثيرة فى إنجلترا ، قضت بها ظروف الحرب . وكثيرا ما يزيد فيها النساء على الرجال .

والسؤال هل هذه المصانع الأرضية ستكون للسلم كما هى للحرب ؟ والجواب أنها قد تكون للسلم ، ولكن الحقق أن أرجاءها ستبقى فى انتظار الحرب القادمة .

لورد « هوهو » :

لم ينصت أحد إلى الإذاعة الألمانية فى سنوات الحرب الأولى إلا وسمع اللورد « هوهو » يقوم بتصيب الأسد فيها مدّ الحلفاء . وقد منحه الألمان هذا اللقب تفخيما وإغراء . وكان الذائع أنه إنجليزى ، دلّت على ذلك لغته الإنجليزية السليمة ولهجته القويمة ، فزاد هذا فى أثر إذاعته .

ومن عام ، حين تنكرت الأقدار للألمان ، تكتّم فى الإذاعة رويدا رويدا . وقرأنا عنه أنه فرّ ، حتى انتهى إلى وطنه أكسبه كآبة دائمة .

ثم قرأنا بعد ذلك أنه عاد إلى وطنه إرلندا ، ذهبت به إلى سمائها طائرة ألمانية ، فهبط منها بمرشوط .

ثم قبض عليه ووجد معه مال كثير وآلة تصوير ومسدس . ولما أودع السجن هرب . ولقيه أبوه فسلم عليه . وتمزّق قلبه لحظة بين حب الوالد وواجب الوطن . ثم قال لولده : يا بنىّ ليس لك إلا التسليم . وأخطر البوليس وسلّمه إلى رجاله

ليت شعرى ما الذى عاد بهذا الشاب الضالّ ؟ أزيادة فى خيانة ، أم حنين إلى الأهل . وهل تجتمع الخيانة والحنين فى قلب واحد ؟ !

السكر المر :

فى المحيط الهندى جزيرة صغيرة أكثر مصائبهـا ثلاثة : العواصف الهوجاء ، والملاريا والسكر . كانت تزرع السكر وتكرره ، وكانت من زراعتها وصناعتها فى رغد العيش . وكانت تبيع سكرها للهند وأستراليـا وجنوب أفريقيا وبريطانيا . ثم حدث أن أخذت أستراليا وجنوب أفريقيا بزرعان القصب . والهند قضت على آثار هـذين البلدين . وبريطانيـا العظمى أرادت أن تحمى سكرها من البنجر فزادت الضريبة الجمركية على الداخل من السكر إلى بلادها . وبهذا انتقلت هذه الجزيرة من مزرعة للسكر ومصنع للسكر ، إلى مزرعة فحسب . واضطرت أن تبيع سكرها خاما ، فهبط بذلك مستوى المعيشة عند أهلها بضياع الصناعة ، وعانى أهلها الفقر ، وهم ٦٠٠٠٠٠ نسمة .

والسكر يصنع فى سياسة الأمم ما لم تصنعه البرلمانات . وهو فى الجزيرة الشهيرة ، جزيرة كوبا ، من الجزر الهندية الغربية ، يأتى بالزعماء الحاكمين ويذهب بهم .

جاء وقت على كوبا كانت فيه مصدر سكر للعالم كله ، يذهب سكرها إلى أركان الأرض الأربعة . ثم أخذت الأسواق تضيق . فجرّتها المقادير إلى أن تعتمد فى تصريف سكرها على الولايات المتحدة وحدها . وحدث من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٠ أن سلكت حكومة الولايات مسلك الحماية لزرّاعها ، فجعلت على السكر الأجنبى ضريبة يؤديها فى الجمرك . فجر هذا على كوبا النوائب ، واهتز عرش دكتاتورها وتقلقل ، وقامت الثورة ، وجرى الدم غزيراً فى شوارع العاصمة ، هافانا . وظهرت مداخن الأسطول الأمريكى فى أفق الجزيرة رهيبة منذرة .

ثم جاء روزفلت بسياسة حسن الجوار الأمريكية ، واقتضت هذه السياسة فتح أسواق أمريكا لأنتجة جيرانها ، ودخل السكر الكوبى فاستطاعت كوبا أن تبيع فى العام مليونى طن من السكر الأبيض . ومع أن إنتاجها كان فى أيام الرخاء الأول أربعة ملايين ، ولكن كان فى هذين المليونين كفاية لتثبيت حكومتها وذيوع الأمن فيها .

ولكن من ثبّت الحكومة وأذاع الأمن ؟ ساسة وشنجبق .

ومن قلقل الحكومة قبل ذلك وصبغ الشوارع بالدماء ؟ ساسة وشنجبق .

وهل كان من عهد هـذا وذاك ؟ لا . وإنما هى رقعة الاقتصاد ، أعقد من رقعة الشطرنج ، لا ينجو من « كش الملك » فيها إلا خبير بصير كله عيون تصحو والناس نيام .

عندما يصبح البقال عالما :

طلبنا إلى البقال أن يرسل إلينا بعض الحاجات . فأرسل مكان الجبن بيضا . فروجع فى ذلك فقال : لم يكن لدى جبن جيد فأرسلت بدله أقرب شىء إليه — البيض . وكلاهما ، بروتينات » يا أفندم والدنيا حرب .

الزنوسى

بسمة

بسمة من فمك العذب بشير فى حياتى
هى بشر يملأ النفس بعذب النشوات
هى نور يمنح الروح دُنىً منطلقات
هى ليست فى خيالى بسمة كالبسمات
هى من أسرار كون عبقرى النفحات
هى سحر غامض السر خفىّ اللمسات !

بسمة تطلق قلبى من قيودى العاتيات
بسمة تمسح آلامى وتمحو حسراتى
بسمة تنزع بها كامناً فى خفقاتى
بسمة تبعثنى خلقاً جديداً فى الحياة
فكأنى أولد الآن جديد الخطرات !
بسمة تمنح روحى لحظات خالدات
بسمة تنزع ضميرى من سواد الظلمات
هى ليست فى خيالى بسمة كالبسمات
هى فى وهمى كون حافل بالمعجزات !

كلما أشرقت بالبسمة فاضت نشواتى
وهفت روحى تشوى بأمانٍ مشرقات
فابتسم حين تلاقينى وزدنى بسمات
طال عهدى مظلم القلب كئيب الخفقات
مثقل النفس من الشجو ووقر السنوات
فابعث النشوة فى نفسى وبدد ظلماتى
بسمة من فمك العذب بشير فى حياتى

محمد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة